

المحاضرة التاسعة / المرحلة الثانية

مدخل في التعريف بعلم البيان:

البيان في اللغة: مَعْنَاهُ الظُّهُورُ والوضوح والإفصاح، وَمَا تَبَيَّنَ بِهِ الشَّيْءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرها، نَقُولُ بَانَ الشَّيْءُ بياناً: اتَّضَحَ، فهو بَيِّنٌ، والجمع: أُبَيَّنَاءُ.

والبيان: الفصاحة واللَّسَنُ، وكلام بَيِّن: فصيحٌ، وفلانٌ أُبَيِّنُ مِنْ فلانٍ: أفصحُ وأوضحُ كلاماً مِنْهُ. وَوَرَدَتْ كَلِمَةُ "الْبَيَانِ" بدلالاتها اللُّغَوِيَّةِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى -: (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: (الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ). بِهَذَا التَّعْلِيمِ تَمَيَّزَ الْإِنْسَانُ عَن كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ - تَعَالَى -، وَصَارَ نَاطِقاً مُبِيناً، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْبِّرَ عَمَّا يَخْطُرُ بِخَاطِرِهِ، وَيَجُولُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْمَعَانِي، فَيُوصِلُهَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ، وَيَتَلَقَّاهَا الْغَيْرُ عَنْهُ، فَيَتِمُّ التَّفَاهُؤُ.

ثُمَّ أَخَذَتْ كَلِمَةُ "الْبَيَانِ" دَلَالَاتِهَا الْإِصْطِلَاحِيَّةَ فِي مَا بَعْدُ فَأَصْبَحَ "الْبَيَانُ"

أَحَدَ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ الثَّلَاثَةِ الْمَعْرُوفَةِ: "الْبَيَانُ وَالْمَعَانِي وَالْبَدِيعُ".

وَقَدْ تَدَاخَلَ عِلْمُ "الْبَيَانِ" بِأَدَى الْأَمْرِ مَعَ عِلْمِ "الْمَعَانِي"، وَاسْتَوْعَبَ بَعْضَ مَبَاحِثِهِ لِأَحِقًا عِلْمَ الْبَلَاغَةِ كُلِّهَا بَعْضَ الْأَحْيَانِ. وَقَدْ عَرَّفَ الْبَيَانَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَدْبَاءِ:

فَقَالَ الْجَاحِظُ: "وَالدَّلَالَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى الْمَعْنَى الْخَفِيَّةِ هُوَ الْبَيَانُ الَّذِي سَمِعَتْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَمْدُحُهُ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ وَيَحْتُّ عَلَيْهِ، بِذَلِكَ نَطَقَ الْقُرْآنُ، وَبِذَلِكَ تَفَاخَرَتِ الْعَرَبُ، وَتَفَاضَلَتْ أَصْنَافُ الْعَجَمِ، وَالْبَيَانُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ قِنَاعَ الْمَعْنَى، وَهَتَاكَ الْحِجَابَ دُونَ الضَّمِيرِ، حَتَّى يُفْضِيَ السَّمَاعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ، وَيَهْجُمُ عَلَى مَحْصُولِهِ كَأَنَّ مَا كَانَ ذَلِكَ الْبَيَانُ، وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ كَانَ الدَّلِيلُ، لِأَنَّ مَدَارَ الْأَمْرِ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا يَجْرِي الْقَائِلُ وَالسَّمَاعُ، إِنَّمَا هُوَ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ بُلُغَتِ الْإِفْهَامُ وَأَوْضَحَتِ عَنِ الْمَعْنَى، فَذَلِكَ هُوَ الْبَيَانُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ". وَقَدْ عَرَّفَهُ الْخَطِيبُ الْقَزْوِينِي بِقَوْلِهِ: "عِلْمُ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ بِطَرِيقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي وَضُوحِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ".

والبيان كما ترى ينصب على الدلالة، وهي عند المناطقة أنواع:

أ- دلالة المطابقة: وهي أن يدل اللفظ على المفهوم الذي وُضِعَ له في اللغة من غير زيادة أو نقصان. فهي دلالة وضعيه كدلالة لفظ "البيت" على البيت.

ب- دلالة التضمن: وهي أن يدل اللفظ على مفهوم يتضمنه مدلوله الأصلي كأن يدل لفظ "البيت" على السقف.

ج- دلالة الالتزام: وهي أن يدل اللفظ على مفهوم يقتضيه مدلوله الأصلي عقلاً أو عرفاً، كأن يدل لفظ "الحائط" على السقف.

ودلالة التضمن والالتزام دالتان عقليتان إذ يعتمد فيهما الذهن على جملة من الوسائط في المرور من مدلول إلى آخر. وهذا المرور أو التجوز كثير في الكلام ولذلك انفرد علم البيان داخل علم البلاغة بدراسة وجوهه. فهو يشتغل بـ "الملازمات بين المعاني" ٦.

وسوفَ نحصرُ الحديثَ عنْ هَذَا العِلْمِ فِي مَوْضُوعَاتٍ، أَهْمُهَا: التَّشْبِيهُ بِأَرْكَانِهِ وَأَنْوَاعِهِ، وَالِاسْتِعَارَةُ بِبَعْضِ أَنْوَاعِهَا، وَالْمَجَازُ الْمُرْسَلُ بِعِلَاقَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَالْمَجَازُ الْعَقْلِيُّ، وَالْكِنَايَةُ.